الباب الأول

تاريخ التربية في المجتمعات البدائية

الفصل الأول

تاريخ التربية : موضوعه و أهميته و منهجه

مقدمة :

ينظر إلى تاريخ التربية عادة على أنه معالجة للتربية من منظورها التاريخي. وهذا يعني أن تاريخ التربية موضوع مستقل بذاته . وينظر إليه من ناحية أخرى على أنه جزء من التاريخ العام شأنه في ذلك شأن التاريخ السياسي أو الاقتصادي . بل إنه كثيرا ما يعالج في هذه الحالة على أنه جزء من التاريخ الثقافي والفكري للشعوب . وبصرف النظر عن اختلاف النظرة إلى تاريخ التربية فإنه يمكن القول ببساطة بأنه تأريخ للتربية . وهنا نتساءل : ماذا نقصد بكلمة تأريخ ؟ وهذا التساؤل على بساطته مهم لأنه يساعدنا على تعميق فهمنا لموضوع تاريخ التربية .

إن كلمة تأريخ ترجع إلى أصل سامي مكون من مقطعين : تعني تحديد الشهر أو التوقيت . ثم اتسع نطاق هذا اللفظ فشمل معنى تحديد حدث ما وروايته . ويشير البيروني في كتابه " الآثار الباقية " إلى خطأ القول بأن كلمة تاريخ فارسية معربة ، وأن أصلها الفارسي هو " ماه روز " أي تحديد بدء الشهر. ويؤيده في ذلك أيضا الخوارزمي في كتابه " مفاتيح العلوم " .

وفي اللغة التأريخ والتاريخ والتوريخ يعني الإعلام بالوقت . وقد يدل تاريخ الشيئ على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة .

وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن علم التاريخ كمصطلح يقصد به تدوين ضروب الحوادث الحولية مما ينطبق على تراجم الرجال وسيرهم (ص : ٤٨٣) . ويقول مؤرخ القرن الخامس عشر شمس الدين السخاوي (١٤٢٧ ـ ١٤٩٧م) في كتابه " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " إن التاريخ فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت ، بل عما كان في العالم . وموضوعه الإنسان والزمان ومسائله أصولهما المفصلة لجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان . (ص : ٢١) .

ويقال إن التاريخ بدأ يظهر إلى الوجود في صورة بدائية عندما أخذ الإنسان

البدائي منذ فجر المدنية يقص على أبنائه قصص آبائه وأجداده ممتزجة بأساطيره ومعتقداته . وقد بدأ التاريخ أولا مختلطا بعناصر من الفن كالرسم والنقش على الحجر . وعندما سارت البشرية قدما في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها رويدا رويدا أخذ التاريخ يشكل أساسا جوهريا في تسجيل موكب البشرية باعتباره المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألوانا من الأحداث وفنونا من الأقطار وصنوفا من الآثار . (حسن عثمان : ص ١٢) .

إن التاريخ يعني ببساطة قصة الإنسان في كفاحه عبر العصور . فهو يدرس الإنسان والأحداث عبر الزمان . ولذا يعني المؤرخون بالتاريخ البشري منذ أن عرف الإنسان الكتابة واحتفظ بسجلاته المدونة . وهي فترة تمتد على ما يقرب من سبعة آلاف سنة . أما الفترة التي تسبق ذلك فلا تعني المؤرخين لأنها تقع في فترة ما قبل التاريخ التي لاتعني المؤرخين لأنها تقع في نطاق علماء الآثار والإجماع البشري .

وتقسم عصور التاريخ عادة إلى العصور القديمة والوسطى والحديثة . وهو تقسيم ، وإن كان مريحا من الناحية المنهجية ، إلا أنه لايستند إلى أي سند علمي أو أساس موضوعي من التاريخ . فلا يوجد تاريخ محدد لنهاية العصور القديمة وبداية العصور الوسطى ، أو نهاية الوسطى وبداية العصور الحديثة . إن التاريخ لايعرف هذه التجزئة . ومع ذلك فلا بأس منها لغرض المعالجة العلمية .

تفسير التاريخ :

إن التاريخ سجل دقيق للأحداث ، ولكنه ليس تسجيلا فوتوغرافيا لها . وكل ما يجتهد فيه المؤرخ أن يحاول تفسير هذا السجل تفسيرا دقيقا . ذلك أنه في علم التاريخ لاتستطيع الأحداث أن تتحدث عن نفسها ، وإنما يلعب المؤرخ دورا كبيرا في تحديد معانيها . وهنا تبدو مهنة تفسير التاريخ مهنة شاقة وعميقة. ولذلك ينبغي أن يتوفر للمؤرخ صفات تؤهله لهذا العمل الهام الشاق . وفي مقدمة هذه الصفات العقل المرتب المنظم الذي يساعده على تنظيم الحقائق وتنظيم العلاقات الزمانية والمكانية التي تربط بينها . كما ينبغي أن يكون ذا فكر ناقد يستطيع أن ينفذ به إلى الأصول والمصادر والمراجع ليستخلص منها النتائج . واختلاف الباحثين في الفهم والتفسير والاستنتاج يودي بهم إلى نتائج

وتفسيرات مختلفة تجعل البحث التاريخي في حركة مستمرة . ومن أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ ، إلى جانب ما سبق أن أشرنا إليه ، الموضوعية في التفسير والبعد عن التحيز والتعصب . وهي مهمة ليست بالسهلة . وقد أشار أ. د. دانس في كتابه " التاريخ الخائن " : دراسة في التحيز " إلى مزالق التحيز التي يقع فيها المؤرخ (روبرت بك : ص ١٢) . ويمكن للمؤرخ أن يتجنب قدرا عظيما من التحيز في تفسير التاريخ ، إلا أنه من المتعذر أحيانا تجنب التحيز البرئ في هذا المجال . فعلى سبيل المثال يميل مؤرخو اليونان القديمة إلى اعتبار مدينة أثينا خلال القرن الرابع والخامس قبل الميلاد مصنعا أنتج أفضل ما عرفته الحضارة الغربية من الناحية العقلية والجمالية معا . وهم ولا شك يبالغون . ذلك أن الحضارة اليونانية خلال تلك الفترة كانت تلميذة للحضارة المصرية القديمة. ونقلت عنها وتأثرت بها . بل إن أفلاطون ، وهو من أعظم فلاسفة اليونان إبان تلك الفترة ، قد تأثر تأثيرا كبيرا بالثقافة المصرية . وهو نفسه قد زار مصر وكتب عنها في كتابه " القوانين " الذي يعتبر نتاج شيخوخته . وسنشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد عند كلامنا على التربية المصرية القديمة . وكذلك من التحيز الواضح إغفال مؤرخي التربية في الغرب الكلام عن الثقافة والتربية الإسلامية في العصور الوسطى مع أنها كانت أعظم ما عرفته الحضارة البشرية خلال تلك الفترة . ومن المعروف أن العالم الإسلامي قد بلغ قمة نهضته الفكرية والحضارية خلال القرون الأربع من الثامن حتى الحادي عشر الميلادي . وكانت هذه النهضة الحضارية الشعاع الذي أنار لأوربا دياجير الظلام التي كانت تحيا فيها . وكانت الغذاء العقلي والفكري ، بل والروحي الذي أعاد الحياة إلى أوصال أوربا مرة أخرى . ولولا هذا الغذاء على حد تعبير المؤرخين الأوروبيين أنفسهم لتأخر عصر النهضة الأوروبية الذي بدأت معه أوربا فترة جديدة من الحياة استطاعت أن تكسر قوقعتها وتمتد بيدها حتى رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا . ومن هناك إلى الهند والشرق الأقصى . كما كان عصر النهضة أساس إزدهار أوربا في العصر الحديث . وهذه مجرد أمثلة قليلة على تحيز المؤرخين :

موضوع تاريخ التربية :

سبق أن أشرنا إلى أن موضوع تاريخ التربية يتعلق بمعالجة التربية من المنظور التاريخي . وأن موضوع التاريخ يتعلق بالأحداث والأشخاص والعلاقات الزمانية

والمكانية ، ومحاولة تفسير كل هذه الأمور تفسيرا ذا معنى يربط بينها وينظم علاقاتها . وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم أن موضوع تاريخ التربية يتعلق بالتاريخ لقطاع واحد من قطاعات الثقافة الإنسانية العريضة وهو قطاع التربية . ويقصد بالتربية في مفهومها الواسع التنشئة الاجتماعية للفرد بحيث يكتسب خصائص مجتمعه . وهذه التنشئة الاجتماعية يشترك فيا المجتمع ككل بكل قواه المؤثرة ومنظماته الاجتماعية والرسمية بما في ذلك النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع ، وما يتصل بذلك من الأدوار الرئيسية التي تلعبها الأسرة والمدرسة والمؤسسات المماثلة في هذا الصدد . وقد اكتشفت المجتمعات على مدى تطورها ونموها أن الأطفال والناشئة لايتشربون ثقافة المجتمع بأنفسهم ، بل لابد من عملية التوجيه والإرشاد حتى تتحقق أهداف المجتمع المنشودة من هذه التنشئة. ومن هنا كان على كل مجتمع أن يشرف على تربية أبنائه . وهكذا أصبحت تربية الأفراد ضرورية لكل مجتمع ليضمن بها استمرار ثقافته من ناحية، وتماسكه الاجتماعي وتقدمه من ناحية أخرى . وإذا كان الهدف الرئيسي للتربية مساعدة الفرد على تحقيق التوافق الاجتماعي مع مجتمعه وإكسابه طريقة الحياة الخاصة به ، فإن المدرسة لاتعدو أن تكون إحدى الوسائط الثقافية للمجتمع التي يستطيع من خلالها تحقيق هذه الغاية أو الهدف . وهكذا يمكننا أن نفهم أن موضوع تاريخ التربية يتعلق بدراسة التربية ومؤسساتها المختلفة بما فيها المدرسة من المنظور التاريخي .

وإذا كان التاريخ يدرس الأحداث كما يدرس الشخصيات باعتبارها صانعة التاريخ ، فإن تاريخ التربية يعني أساسا بالممارسات التربوية . كيف كانت عبر العصور المختلفة ؟ وكيف تطورت الأهداف والأنماط التربوية عبر العصور ؟ كيف تختلف التربية باختلاف المجتمعات واختلاف العصور ؟ كيف نشأت المدرسة كمؤسسة تربوية ؟ وكيف تطورت ؟ ولماذا تختلف أساليبها وأدوارها من مجتمع لآخر ؟ كيف كانت التربية انعكاسا لآمال الشعوب وأمانيها ؟ وكيف كانت التربية انعكاسا للأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمعات المختلفة ؟ ولماذا تختلف النظم التعليمية باختلاف المجتمعات ؟ وكيف تأثرت هذه النظم بالبنية الفوقية والتحتية للمجتمعات على اختلاف أشكالها ؟ لماذا كانت هناك نظم تعليمية تقدمية تحررية تعمل على تحرير فكر الإنسان

وانطلاقه وأخرى تسلطية استبدادية تحجر على الفكر وتقيده وتحد من انطلاقه وحريته ؟

وينبغي هنا أن نميز بين تاريخ التربية وبين تطور الفكر التربوي . فكما قلنا تاريخ التربية يعني بصورة رئيسية بالممارسات التربوية عبر العصور المختلفة ، أما تطور الفكر التربوي فيتعلق بتطور النظرية التربوية كما يتصورها فلاسفة التربية على مر العصور المختلفة . أو بعبارة أخرى هو دراسة لآراء فلاسفة التربية عبر العصور . ولكن على الرغم من هذا التمييز بين تاريخ التربية وتطور الفكر التربوي فإن مؤرخي التربية يتناولون أيضا معالجة آراء فلاسفة التربية عبر العصور المختلفة باعتبار هؤلاء الفلاسفة انعكاسا لمجتمعاتهم وباعتبار أن آراءهم تمثل أهمية بالنسبة للمجتمعات التي ظهروا فيها . بل إن آراء بعضهم كانت أيضا أساسا للممارسات التربوية عبر العصور والمجتمعات المختلفة . ومن هنا كان من الضروري أيضا ألا يغفل تاريخ التربية في دراسته للممارسات التربوية معالجة أصحاب النظريات التربوية وفلاسفة التربية الذين ظهروا عبر العصور المختلفة .

أهمية دراسة تاريخ التربية :

ينظر إلى التاريخ أحيانا على أنه مجرد كومة من التراب . فالتاريخ وفق هذه النظرة هو مجرد ماضي عديم القيمة أو الفائدة . والواقع أن هذه النظرة خاطئة ولاينبغي أن تصرف أنظارنا وتحول انتباهنا عن أهمية دراسة التاريخ لأنه يمثل ماضي الإنسان في كفاحه من أجل تحقيق مثله العليا وأمانيه المنشودة . ولا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنا اجتماعيا . ولذلك ينبغي عليه أن يعرف تاريخه وتاريخ أعماله وآثاره . فالماضي ليس شيئا ميتا أو عفا عليه الزمان ، بل إنه يعيش ويمتد في عالمنا المعاصر ، يؤثر فيه ويحركه ويوضحه ويفسره وقد يتحكم فيه . ذلك أن حاضر اليوم هو ماضي الغد ومستقبل الأمس . فالماضي والحاضر والمستقبل إذن وحدة عضوية تؤثر وتتأثر ببعضها . وإذا كان للتاريخ هذه الأهمية كان لتاريخ التربية أهمية أخرى لاتقل عنها ، إن لم تزد عليها . ذلك أن تاريخ التربية يوقفنا على تجارب الإنسانية وخبراتها وتجاربها عبر العصور . ويكشف لنا عن المثل العليا للشعوب وآمالهم الكبار ، ويوضح لنا اختلاف الممارسات التربوية واختلاف أسسها وفلسفاتها واتجاهاتها .

وهكذا يمكننا أن نميز مما سبق أهمية دراسة تاريخ التربية . فإلى جانب الأهمية الأكاديمية والعلمية من حيث أن العلم قيمة في ذاته، هناك أيضا الأهمية الحضارية التي تتأتى من دراسة حضارات الشعوب الأخرى والتعرف على جوانبها. قال تعالى " وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " . وهناك أيضا الأهمية النفعية التي تتمثل في الدروس المستخصلة من دراسة هذا التاريخ . ذلك أن الفرق الجوهري الذي يميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات احتفاظه بماضيه وحرصه على نقل ثقافته المتراكمة من جيل إلى آخر . فالتاريخ التربوي هو تجارب الإنسانية وخلاصة كفاحها على مر العصور في مختلف المجتمعات من أجل الارتقاء بالجنس البشري وتقدمه . وقد أكد المربي الروماني المعروف "شسشرون " أهمية التاريخ وأهمية دراسته بقوله : " أن تكون جاهلا بما حدث قبل أن تولد هو أن تعيش كالأطفال إلى الأبد . فما أهمية حياة الإنسان إذا لم ترتبط بحياة الأسلاف بواسطة ذكرى التاريخ » . وفي عبارة مشهورة للسياسي الألماني المعروف " بسمارك " : « إن الحمقى هم الذين يقولون إنهم تعلموا من تجاربهم . وأنا أفضل أن أتعلم من تجارب الآخرين » . فالتاريخ نفسه مهم وفيه دروس مستفادة. ومن الأقوال المأثورة عن المؤرخ البريطاني " تريفليان " قوله : « كلما تقدمت بي السن ولاحظت اتجاه الأمور في عالمنا الراهن تأكدت أن التاريخ يجب أن يكون أساس التربية الإنسانية » . وهو يعتقد بأنه بدون المعرفة التاريخية تظل أبواب المعرفة موصدة في وجه الإنسان . ويقول المقريزي عن علم التاريخ : «إنه من أجل العلوم قدرا وأشرفها عند العقلاء مكانة وحظا لما يحويه من المواعظ » . ويقول ابن خلدون عن فائدة دراسة التاريخ :

« إعلم أن فن التاريخ فن غزير المذاهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية . إذ هو يوقفنا على أحول الماضيين من الأمم السابقة في أخلاقهم . فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط . لأن الأخبار إذ اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق » .

ويقول السخاوي (ص ٥) عن أهمية وفائدة علم التاريخ « إن التاريخ من

المهمات العظام ، مقبول عند الأنام ، مشتمل على فكر معبر ، ومنطو على مصالح ومحاسن على وجه معتبر . ولولاه لم يصل إلينا لاخبر ولا أثر . وهو غذاء الأرواح والأشباح ، خزانة أخبار الناس والرجال ، معدن العجائب والغرائب والروايات والأمثال ، زين الأديب وعمدة اللبيب ، عون المحدث وذخر الأديب ، يحتاج إليه الملك والوزير والقائد البصير وغيرهم ممن عز أمرهم . أما الملك فيعتبر بما مضى من الدول ومن سلف من الأمم . وأما الوزير فيعتبر بفعال من تقدم ممن حاز فضل السيف والقلم . وأما قائد الجيوش فيطلع به على مكائد الحرب ومواقف الطعن والضرب . وأما غيرهم فيستمعونه على سبيل المسامرة فيحصل لهم بذلك إلى أنواع الخيرات . والاجتناب عن المنكرات المبادرة » .

وهكذا يتضح أن لدراسة التاريخ أهميتها الكبيرة . وتنسحب هذه الأهمية على دراسة تاريخ التربية لأنه يمثل أهمية معرفية ومهنية لمعلمي المستقبل . ولاشك في أن خبراتهم تزداد غنى من خلال معرفتهم لتطور الممارسات التربوية ، وتصور المجتمعات لها على اختلاف أشكالها . كما تزداد خبرتهم من خلال معرفة النماذج التربوية لمختلف الأمم والحضارات ، وما يتحقق من وراء كل ذلك من دروس وتجارب مستقادة يمكن أن يكون لها أثر طيب في تعميق فهمهم المهني للعملية التربوية .

البحث التاريخي :

إن البحوث التي يقوم بها المؤرخون تختلف عن البحوث التي يقوم بها معظم الباحثين في كثير من الجوانب الرئيسية الهامة .

ومن المعروف أن كثيرا من البحوث التي يقوم بها طلاب الدرجات العلمية في كليات التربية ذات طابع توثيقي تاريخي . كما أن ما يقوم به الباحث في أي مجال علمي بمراجعة الدراسات السابقة في موضوعة هو في حد ذاته دراسة تاريخية . لأنه يستعرض ويحلل ما قام به الآخرون في الماضي . يضاف إلى ذلك أن العقود الأخيرة الماضية قد شهدت تقاربا بين البحث التاريخي والبحث في ميادين أخرى مثل الأنثروبولوجيا وعلم النفس .

وقد قام المجلس الأمريكي للبحوث في العلوم الاجتماعيةThe Social Scienece Research Council بجهود مثابرة لكي يحمل الباحثين في هذه التخصصات

المختلفة وغيرها من التخصصات المرتبطة على تنسيق جهودهم محتى يستفيد كل منهم من عمل زميله وما يستخدمه من أساليب وطرائق منهجية في مجال تخصصه . وهذا النوع من البحوث المشتركة يعرف بالبحوث متداخلة التخصصات. ويقدم لنا تقرير المجلس الأمريكي للبحوث الذي أعده جوتستشوك Gottsehalk وآخرون عام ١٩٤٥م مثالا لهذا النوع من البحوث حيث تكاتفت معرفة عالم الأنثروبولوجيا وعالم الإجتماع والمؤرخ في الوصول إلى تفاهم كامل حول استخدام الوثائق الشخصية في البحث .

كما أن علماء النفس أيضا قاموا بدراسات تقع على هامش البحث التاريخي. فكتابات ألبورت Alport (١٩٤٢م) على سبيل المثال عن استخدام الوثائق أو السجلات الشخصية في البحث كان لها تأثير على مستخدمي المنهج التاريخي .

إن البحث التاريخي يتعلق بماضي الإنسان . ومع أن أحد أهدافه هو إعادة بناء هذا الماضي ، فإن ذلك لايمكن تحقيقه كاملا . إن مشكلة المؤرخ مشابهة لمشكلة عالم النفس الذي يدرس مادة تاريخية لدراسة الحالة ويحاول من خلال دراسته لهذه المادة أن يعيد بناء طبيعة الشخص الذي تتعلق به . إن المعلومات تكون دائما جزئية وإعادة بنائها يقدم صورة باهتة وليست صورة كاملة . ويمكن لدراسي تاريخ الحالات الشخصية أن يصلوا إلى صور مختلفة من إعادة البناء حتى ولو كانت المعلومات التي استندوا إليها واحدة .

بيد أن لدراسي تاريخ الحالات الشخصية ميزة على المؤرخين هي أنهم يستطيعون أن يقوموا بمزيد من الدراسة عن حالتهم وأن يتحققوا من النتائج التي وصلوا إليها من خلال جمعهم لمواد ومعلومات إضافية . وهذا هو ما يفعله عالم النفس الإكلينيكي . فمن خلال المعلومات التي يجمعها عن الحالة التي يدرسها يحاول أن يعيد بناء شخصية الفرد موضع الدراسة . ثم يقوم بالتحقق من صدق الصورة التي كونها عن الشخص بملاحظته . وهذا ما لايستطيعه المؤرخ . لأن المؤرخ لايستطيع أن ينظر إلى المستقبل ليتحقق من صورة الماضي التي صاغها أو أعاد بناءها . ولكن التاريخ ليس فقط مجرد إعادة بناء أو صياغة الماضي . وإنما هو صورة لروح البحث النقاد الذي يهدف إلى عرض صادق لحوادث الماضي . إن القول بأن المؤرخين يحاولون كتابة التاريخ هو قول صادق في بعض النواحي .

ولكن الكثير مما كتب عن الماضي قد يكون سيء السمعة إذا ما قصد به التحريف أو التشويه . ويتوجب على الذين يريدون القيام بدراسات تاريخية في التربية أن يبدأوا بدراسة المواد المكتوبة من قبل المؤرخين عن منهج البحث التاريخي . مثل كتاب جوتستشوك عن الطريقة التاريخية عام (١٩٥٠) وهو كتاب كلاسيكي . ويعتبر كتاب كل من بارزون وجراف(١٩٧٠) عن المشكلات الرئيسية لمعالجة المعلومات التاريخية من الكتب القيمة.كذلك على الطالب أن يتأكد من أن التاريخ قد كتب لعدة أغراض بما فيها تلك التي تؤدي إلى المعرفة ومحاولة التنبؤ بالمستقبل ، وبما فيها كونه مصدرا للإلهام وتفسيرا للأحوال البشرية وهكذا.

وقد كتب المؤرخ " دانيالز Daniels " (١٩٧٢) عن « كيف ولماذا نكتب التاريخ ؟» والمؤرخ المشهور نيفينز Allan Nevins أيضا قد بحث في مثل هذه الأمر. وقد قام بيلنتجون Billington (١٩٧٥) بتجميع بعض الكتابات . كذلك العمل القيم الذي قام به المؤرخ نارستون Narston يزودنا باقتراحات حول كتابة التاريخ بما فيها كتابة التاريخ القصصي أو الروائي .

استخدام المؤرخين للوثائق :

إن إعادة صياغة أو كتابة الماضي والتي يطلق عليها " التاريخ " . تستند أساسا إلى النتائج المستمدة من الوثائق . وإن اصطلاح وثيقة يستخدم هنا بشكله الواسع أكثر مما يقصد به عادة في الحياة اليومية . فالوثيقة هي أي أثر يتركه الإنسان على شكل مادي . وهذا الأثر قد يكون مكتوبا بالحبر على ورقة أو محفورا بأزميل على قطعة من الصخر أو الحجر . أو مرسوما بريشة فنان على لوحة أو مصنوعا من الطمي بيد صانع للأواني أو في أي صورة أخرى من الصور التي تعبر عن النشاط الإنساني .

إن إعادة بناء أو صياغة الماضي يقوم بها المؤرخ من خلال مجموعة من الرموز المكتوبة أو المدونة . وتقوم هذه الصياغة على افتراض أن كلمات التاريخ أو مفرداته تعبرعن علاقات محددة بالأحداث الماضية ومثلها مثل المعادلة في العلوم الطبيعية . فالمعادلة تعبر عن العلاقة بين العمليات القائمة في التجربة . والفرق الرئيسي بين العالم الطبيعي والمؤرخ أن الأول يستطيع أن يعيد إجراء التجربة ليتحقق من أن هذه العلاقة صحيحة . أما المؤرخ فيشق عليه عمل ذلك .

معايير الحكم على صدق النتائج المستخلصة :

هناك بعض المعايير التي يستخدمها المؤرخون للتثبت من صحة النتائج التي يستخلصونها والحكم على مدى صدقها . منها ما يسمى بمعيار الثبات والتماسك الداخلي . ويقصد به ما إذا كانت الأفكار تتطابق مع أفكار أخرى مستخلصة من مصادر مختلفة . ذلك أن النتائج التي يتوصل إليها المؤرخون من مصادر مختلفة عن حدث تاريخي معين يجب أن تكون متطابقة ومتلائمة وغير متناقضة حتى يمكن الاطمئنان إلى صحتها والتثبت من صدقها . إن هذا النوع من التثبت الذي يستخدمه المؤرخون عادة مماثل لما يستخدمه العلماء . بيد أن العلماء لديهم طريقة أخرى للتثبت من النتائج . وذلك عن طريق التنبؤ على أساس هذه النتائج . وتحديد ما إذا كانت التنبؤات صحيحة أم لا . في حين أن المؤرخ لايقدر على استخدام الطريقة الأخيرة ليتأكد من نتائجه . إن الصعوبة التي يواجهها المؤرخ عندمايحاول أن يتأكد من صحة نتائجه هي أن هذه النتائج قد تتضمن درجة من الأحكام الذاتية أو الشخصية بل والتعصب أحيانا . ومن معايير الحكم على مدى صدق النتائج المستخلصة أيضا ما يتعلق بتقييم الوثيقة كمصدر للمعلومات وهو ما سنفصله في السطور التالية :

تقييم الوثيقة كمصدر للمعلومات :

تتمثل قيمة الوثيقة وأهميتها بالنسبة للبحث التاريخي في مقدار ما تقدمه هذه الوثيقة من معلومات صادقة موثوق بها . ويمكننا أن نستعين بالمعايير الآتية لتقييم الوثيقة كمصدر للمعلومات .

١ - **كفاءة مؤلف أو كاتب الوثيقة :** لاشك في أن من أهم ما يميز الحكم على الوثيقة ما يتعلق بمدى كفاءة مؤلفها وشهرته وسمعته العلمية . فالمصادر التي يكتبها مؤرخون محترمون لابد وأن تختلف في قيمتها عن تلك التي يكتبها هواة . فمن المسلم به أن الخبرة والتدريب والحس المهني الذي يتميز به المؤرخ الكفء تجعل لكتاباته قيمة علمية كبيرة . كما تضفي على القارئ ثقة واطمئنانا إلى أن ما يقرأه إنما تم من قبل شخص مقتدر له نظرته العلمية الفاحصة .

٢ - **علاقة المؤلف بالحدث الذي يؤرخ له :** من المسلم به أنه كلما كان المؤلف قريبا

من الحدث الذي يسجله أو يؤرخ له كانت الوثيقة أو المصدر أكثر فائدة وقيمة . فما يكتبه مؤرخ معاصر للأحداث التي يصفها يستحق اهتماما كبيرا يفوق ما يكتبه مؤرخ لاحق . فالعنصر الزمني مهم في تحديد قيمة الوثيقة وأهميتها النسبية .

٣ ـ **مدى الضغوط التي خضع لها المؤرخ :** قد يخضع المؤرخ أثناء كتابته التاريخية لشتى أنواع الضغوط الشخصية أو الاجتماعية أو السياسية . وبالتالي تكون كتابته صورة مشوهة لما حدث . فقد تملي عليه تحيزاته أو تعصباته الشخصية إغفال أشياء معينة من الحدث لاتتفق مع ميوله أو رغباته . أو قد يتصور أشياء وهمية لا وجود لها مما يحمله على الزيادة والنقصان . وهو ما يؤثر بالطبع على دقة تسجيله للأحداث . وقد يكون الجو السياسي أو الاجتماعي العام الذي يعيش فيه حائلا دون الكتابة الصريحة أو الصحيحة عن الحدث نفسه . وكل هذه الأمور تقلل من قيمة الوثيقة كمصدر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه والإطمئنان إليه .

٤ ـ **الهدف الذي يرمي إليه المؤرخ :** قد تكتب الوثيقة لأغراض مختلفة . فقد يكون الهدف من كتابة الوثيقة الإعلام أو التذكر كما في المذكرات الشخصية . وقد يكون هدف الوثيقة التوجيه كما في الأوامر أو القرارات أو التوجيهات أو اللوائح . وقد يكون هدف الوثيقة إحداث تأثير معين على القارئ كما هو الحال في الدعاية أو الإعلان . وقد يكون الهدف من الوثيقة الترويح عن النفس كما في المراسلات الشخصية . ولاشك في أن الهدف من كتابة الوثيقة يعتبر عاملا رئيسيا فيي الحكم على الوثيقة كمصدر تاريخي .

اتجاهات البحث في تاريخ التربية :

يمكن أن نميز من بين اتجاهات البحث في تاريخ التربية مايتعلق منها بالشكل ومنها مايتعلق بالمضمون . أما ما يتعلق منها بالشكل فهناك منهجان معروفان أحدهما هو المنهج الأفقي أو العرضي وهوالمنهج الشائع في دراسة تاريخ التربية ويقوم هذا المنهج على أساس الدراسة المقطعية للتربية في المجتمعات المختلفة عبر العصور المختلفة : العصور القديمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة . وفي

العصور القديمة تدرس التربية في مصر الفرعونية مثلا أو في الهند أو في اليونان أو في الصين.وفي العصور الوسطى تدرس التربية المسيحية أو الإسلامية وهكذا بالنسبة للعصور الحديثة . وقد اتبع هذا المنهج كثيرون من مؤرخي التربية في الغرب منهم باطس * Butts ومولهيرن ** Molhern وتبعهم في ذلك مؤلفو تاريخ التربية في الشرق . أما المنهج الثاني فيعرف بالمنهج الطولي أو الرأسي وبناء على هذا المنهج تدرس التربية من الناحية التاريخية في صورة مشكلات أو موضوعات بحيث تعالج كل مشكلة أو موضوع عبر العصور المختلفة . فيدرس مثلا التعليم الابتدائي عبر العصور المختلفة وفي المجتمعات المختلفة وبنفس الطريقة تدرس الموضوعات الأخرى المشابهة مثل التعليم الثانوي أو الجامعي أو إعداد المعلم وهكذا . . ويمثل هذا المنهج برو بيكر *** Brubacher .

أما من ناحية معالجة المضمون فهناك أكثر من طريقة أو أسلوب في مقدمتها طريقة السرد . وهي تتمثل في الاقتصار على سرد الأحداث سردا زمنيا ومكانيا دون التعرض لتفسيرها أو تحليلها . ومع أن هذه الطريقة تترك للقارئ استخلاص النتائج وإدراك العلاقات وتخلو تقريبا من أثر العامل الشخصي للباحث إلا أنها تفتقر إلى اللحم والدم الذي يكسو العظام ليجعل منها شيئا له معنى .

وهناك الطريقة التحليلية التي تحاول تحليل العلاقات الزمانية والمكانية للأحداث والظواهر التربوية بحيث تصبح لهذه العلاقات منى وتفسيرا . ويلعب الباحث دورا هاما في المعنى أو التفسير الذي يضفيه على هذه العلاقات . ولهذا قد يحتاج التاريخ التربوي من حين لآخر إلى مراجعة بعض تفسيراته . فطبيعة صناعة التاريخ ذاتهاتسمح ، بل قد تستدعي ، مثل هذه المراجعة . وهناك أيضا طريقة أخرى شائعة في تفسير تاريخ التربية هي ما تعرف بالطريقة النفعية أو

---

* Butts, F. : A Cultural History of Wstern Education. McGraw =Hill, N.Y. 1947.

** Mulhern, J. : A History of Education. Ronald Press Co. N.Y. 1948.

*** Brubacher, J. : A History o f The Problems of Education. McGraw =Hill Co. N.Y. 1955.

المذهب النفعي . ويعتبر التفسير النفعي لتاريخ التربية من أكثر التفسيرات شيوعا حيث يفسر في ضوء احتياجات وظروف العصر . ولعل أقدم دراسة منهجية لتاريخ التربية على أساس من التفسير النفعي هو كتاب " آبي كلود فلوري " (١٦٤٠ ـ ١٧٢٢) « مقال في اختيار الدراسات ومنهجها » والذي يعتبره " هـ . ج . جود " أول دراسة منهجية لتاريخ التربية . وبناء على هذا المنهج أو الطريقة تفسر الظواهر التربوية في ضوء احتياجات العصر . فلقد توصل " فلوري " على سبيل المثال إلى هذا الاستنتاج النفعي وهو : إن التربية الرومانية قد توجها تدريب الخطباء والمحامين ذلك لأن روما كانت تحتاج لأمثال هؤلاء الرجال . والمذهب النفعي هو صورة جذابة من صور التفسير . وقد استخدمه رجال مشهورون من بينهم فيلسوف القرن التاسع عشر الإنجليزي " هربرت سبنسر" ، حيث اتضح مذهبه النفعي فيما كتبه عن التربية عام ١٨٥٩م في مقال مشهور بعنوان " أي المعرفة أكثر فائدة ". فاضل فيه بين الثقافتين العلمية والأدبية وأيهما أجدر بالدراسة والتعليم . وأكد أهمية الثقافة العلمية .

ورغم أن المذهب النفعي قد أثبت فائدته في تفسير التربية ، إلا أنه لايسلم من النقد لقصوره عن رسم الصورة الكاملة أو الشاملة . ذلك أن شمول التفسير هو أولا وقبل كل شيء أحد معايير تقيم مدى مناسبة أية نظرية . وإذا ما قومنا المذهب النفعي فمن الواضح أنه لابد من أن تتسع النظرية لتفسير الجوانب الأخرى غير النفعية . منها مثلا تفسير الأسباب التي جعلت كثيرا من المربين يشيدون بالتدريب المهني والتخصصي أو يناصرون بحرارة التربية الحرة والتعليم العام . ومن ذلك تفسير التربية التي تهدف إلى المساعدة على تحقيق الذات وغيرها من الأمثلة .

ولعل أحسن أساليب معالجة مضمون تاريخ التربية هو الأسلوب الذي يمزج بين الطرق والأساليب جميعا بحيث تستخدم كل طريقة في الموقف الذي يتطلبها ، وبحيث تتكامل هذه الأساليب فيما بينها لتعرض للظواهر التربوية في صورة فكرية مترابطة تمكن من فهمها وتأملها واستخلاص الدروس المستفادة منها .

الفصل الثاني

التربية في المجتمعات البدائية

إن للتربية جذوراً عميقة في الماضي إلى الحد الذي لاتدركه السجلات التاريخية الحالية . فنحن نعرف أن الإنسان القديم قد طور مختلف الأدوات مثل السكاكين وتوليد الشرارة من الحجارة . ولقد أظهرت الحفريات التي أجراها "ليكي" في تنجانيقا في شرق أفريقيا وجود أدوات ترجع إلى عصر موغل في القدم . فهل كان صناع تلك الأدوات مبدعين أم مقلدين ؟ ويمكننا الحكم استنادا إلى الأنشطة التعليمية في العصر الحجري والقبائل التي تنتمي لهذا العصر في الوقت الحالي بأن التعليم كان على الأقل قائما على التقليد . ومن المعتقد أن كثيرا من المهارات والاتجاهات والمعرفة مثلا علاقات القرابة كانت معقدة بحيث يتعذر تقليدها بدون إشراف . ويقول أحد المؤرخين إنه كان لدى بعض الجماعات في مرحلة ما قبل التعليم والتدريب مدارس فعلية مثل مدارس " الشجيرة " بشرق وغرب إفريقيا ، وهي ذات مبان وهيئة تدريس متخصصة (روبرت بك : ص ١) .

وكان فن القراءة والكتابة معروفا للسومريين والبابليين والآشوريين قبل أن تتعلمها الشعوب اليونانية . ويعتبر المصريون أيضا من أوائل الشعوب التي عرفت الكتابة . ولقد وجد الكتبة في مصر منذ عام ٣٥٠٠ ق.م . أي قبل العصر البرونزي . ولقد كتب عن ذلك هوميروس في الإلياذة والأوديسا . ولم تقتصر هذه الحضارات على عناصر القراءة والكتابة ، إذ بلغت كل منها في الأدب والرياضيات والفلك والمعاملات والدين مستويات عامة عالية . لقد كان لديهم مدارس بعضها خاصة بينما الأخرى تدار في المعابد والقصور كما سنشير بالتفصيل فيما بعد .

ويعلق بعض فلاسفة التاريخ أهمية كبرى في التقدم البشري وإرساء الحضارة الإنسانية على عامل الجنس والسلالة بمعنى أن أجناسا أو سلالات معينة من البشر هم وحدهم القادرون على صنع التقدم الحضاري والبشري . وآخرون يؤكدون أهمية عوامل أخرى مثل التحدي البيئي والجغرافي أو الموهبة الفردية والقلة

المبتكرة من الأفراد أو الحرية الثقافية والتلاقح الثقافي . أو حتى مجرد الحظ . وبعضهم يجمع بين أكثر من عامل واحد من هذه العوامل . والواقع أنه لايمكن الأخذ بأي وجهة نظر واحدة منها . ومهما اختلفت الأهمية النسبية لأي عامل من هذه العوامل فمما لاشك فيه أن توفر مناخ مناسب وبيئة جغرافية مواتية إلى جانب العوامل الأخرى يعتبر من الشروط الأساسية الضرورية التي تساعد على قيام الحضارات البشرية . وهكذا تتقدم المجتمعات البشرية وتتطور . والمجتمعات الحديثة لم تصل إلى الصورة التي هي عليها بين يوم وليلة . ولكن بعد طريق طويل عبرت فيه من المرحلة البدائية إلى المرحلة المتطورة الراهنة . ومع هذا من يدري ماذا سيقوله أحفادنا عنا ؟ .

مقارنة بين المجتمعات البدائية والحديثة :

اختلفت النظرة إلى المجتمعات البدائية نفسها . فالنظرة الكلاسيكية التقليدية عن المجتمع البدائي من وجهات علماء الإنسان أنه مجتمع غير متحضر يتصف بالعزلة وعدم التغير . كما يتسم بالتضامن الاجتماعي القوي والتجانس المجتمعي ، إذ يشارك أغلب أفراده نفس المعرفة والاهتمامات والأفكار والاتجاهات والأنشطة على مستوى المجتمع برمته . كما أن السلوك الاجتماعي يتميز بأنه سلوك عائلي تقليدي وجامد نسبيا . وأخيرا يقوم المجتمع البدائي على تقسيم بسيط للعمل والأدوار الاجتماعية . وقد تطورت هذه النظرة إلى اعتبار المجتمعات البدائية بداية للإنسان في حياته الطبيعية قبل قيام الحكومات المدنية. ويعتبر علماء الإنسان في القرن التاسع عشر المجتمعات البدائية النماذج الأولى للمؤسسات الحديثة .

وتختلف المجتمعات البدائية عن المجتمعات الحديثة في أساسها الاجتماعي الذي تقوم عليه . فإذا كانت الأسرة الصغيرة المكونة من الزوجين وأطفالهما هي وحدة المجتمع الحديثة ، فإن الأسرة الممتدة على أجيال عديدة هي أساس تلك الوحدة في المجتمعات البدائية . وتقيم هذه الأسرة الممتدة عادة في مكان واحد للسكن . وتسكن كل أسرة صغيرة في كوخ أو سكن خاص بها . وعلى نقيض المجتمعات الحديثة التي تتميز بالتعقيد والتخصص والكثافة السكانية نجد أن المجتمعات البدائية مجتمعات بسيطة صغيرة الحجم وثقافتها محدودة وثابتة تقريبا . إن تعقد الثقافات في المجتمعات المعاصرة يجعلها أقل حساسية من

المجتمعات البدائية بالنسبة لتأثير العواطف الجماهيرية . فالقبيلة البدائية سريعة الانفعال وتتغلب عليها العاطفة . ويؤمن الرجل البدائي على نقيض الرجل العصري بوجود نظام ثابت للأشياء ، وأن الإنسان وبيئته يشكلان كلا لاينفصل . ويوجد الفرد في المجتمع البدائي كعضو في مجتمعه الذي يتشكل مع هذا النظام الثابت.كما أن الفرد يعيش ويحيا بإتباع طرق مجتمعه.ويعيش الإنسان العصري في عزلة اجتماعية أكثر من الرجل البدائي.كما أن روابط القربي تضعف لدى الإنسان العصري ولايرتبط بمجتمعه إلا بمجموعة محدودة من العلاقات.والمجتمع الحديث على عكس المجتمع العصري لايعرف أبناؤه إلا جزءا ضئيلا من أنشطته الثقافية لاتساع مجال هذه الأنشطة بدرجة يصعب عليهم الإلمام الكامل بها.يقول"جولس هنري"J.Henryكلما إزدادت المعرفة في أي ثقافة يميل جهل الأفراد إلى الزيادة إذ تقل قدرتهم على الإلمام بكل المعلومات(ص ٢٩٦).

معالم التربية في المجتمعات البدائية :

هناك سمات رئيسية ومعالم مميزة للتربية في المجتمعات البدائية من أهمها:

١ ـ التعليم بالممارسة أو الأداء :

يتضمن معظم التعليم الإنساني الواعي عمليات ثلاث هي الاستماع والملاحظة والأداء . وتختلف بعض الثقافات في تأكيدها على جانب أو آخر من هذه العمليات . ففي التربية المعاصرة لاسيما التقليدية منها يستمع الأطفال أو يقرأون أكثر مما يلاحظون أو يؤدون ، وإن كان هذا الوضع قد تغير قليلا بسبب التوسع في استخدام تكنولوجيا التعليم والوسائل التعليمية المختلفة وفي مقدمتها التليفزيون والتعليم المبرمج والحاسب الآلي و"الإنترنيت" أو شبكة المعلومات الدولية . وبالنسبة للمجتمعات البدائية فإن التركيز في التعليم كان دائما على الممارسات والأداء . ذلك أن الطفل البدائي على عكس الطفل العصري يسهم بشكل فعال في الحياة الاجتماعية أو ينتظر منه منذ صغره أن يتحمل مسئوليات تتناسب مع قوته وتجربته لاسيما ما يتعلق منها بقيامه بمساعدة أسرته في كسب معيشتها . فالصبيان على سبيل المثال يصيدون ويمارسون الألعاب البسيطة . كما أن البنات تساعد في أعمال الحقل أو رعاية المنزل أو الصغار .

٢ ـ سرعة تعلم الدور الاجتماعي :

يتم تعلم الأدوار الاجتماعية لكل من الذكر والأنثى بصورة سريعة في بالمجتمع البدائي . ذلك أن مطالب واجبات النمو الفردي والاجتماعي تتم في صورة سهلة يسيرة . ويتم أداء هذه الواجبات في مرحلة مبكرة . فالصغير ينخرط في مجتمع الكبار ويتحمل واجباته ومسئولياته الاجتماعية في فترة مبكرة من حياته بدرجة لاتتوفر في المجتمعات المعاصرة . وهكذا لاتتطلب التربية والتعليم في المجتمعات البدائية وقتا طويلا . فالطفل في مجتمع الإسكيمو مثلا وهو مجتمع بدائي جدا يتعلم اللغة من والديه ويتعلم في سن التاسعة استعمال الأدوات والتنبؤ بالطقس . كما يكون قد تعود على بعض العلاقات الشخصية والأمور الدينية . ويصبح أكثر مهارة في الصيد ومعرفة الطقس والبيئة كلما تقدم نحو سني البلوغ . إلا أن تعليمه الرسمي يكون قد انتهى عندئذ . بمعنى أنه يكون قد تعلم كل ما يمكن أن يتعلمه مباشرة من البالغين . ومن الواضح أن السبب الرئيسي في ذلك يرجع إلى بساطة المعرفة والمهارات اللازمة للحياة الاجتماعية لدى الرجل البدائي ، وإن كان هذا لايمنع من وجود حصيلة كبيرة من المعرفة السرية التي تعطى بحرص إذ يعتقد أنها تضمن بقاء المجتمع ورخاءه . هذا في حين أن ضخامة المعرفة وتعقد الثقافة في المجتمع العصري تكون سببا رئيسيا في طول الزمن اللازم للتربية والتعليم . فمن الطبيعي أن المجتمع العصري يعلم أطفاله قدرا أكبر من المعرفة عما هو عليه في المجتمعات البدائية . كما أن المجتمع العصري يستخدم أنواعا مختلفة من طرائق التدريس . ويوجد فيه التعليم المدرسي الذي تطول مدته .

٣ ـ سيطرة التفكير الميتافيزيقي :

تركز اهتمام الإنسان البدائي على تأمين حاجته من الطعام وحماية نفسه من الأخطار والحيوانات الشرسة وقوى الطبيعة المدمرة من العواصف والرياح والبرق والرعد والمطر . وكان عليه أن يؤمن نفسه ضد الجوع وضد الخوف من قوى الطبيعة الخفية يتودد إليها أو يستعطفها أو يؤلهها ويعبدها . كما استخدم السحر للسيطرة على الأرواح الشريرة وتسخيرها وترويضها أو لطردها بعيدا . ولقد امتزج الطب بالدين عند الإنسان البدائي واستخدم السحر و الشعوذة لإبعاد الروح الشريرة عن جسم الإنسان إذا ما حلت به . وهكذا سيطر التفكير

الميتافيزيقي والخرافي على عقل الإنسان الخرافي . وآمن بوجود قوى غيبية في الطبيعية توجه أقداره ومصيره .

٤ - بساطة التعليم وسهولته :

يتم التعليم في المجتمع البدائي بصورة سهلة بسيطة لأن أدوات التعليم ووسائله في متناول الفرد . ويكون تعلمه من خلال الممارسة والتدريب عليها سواء كانت هذه الأدوات أو الوسائل رمحا أو محراثا أو قناعا للأطفال . ويكون ما يتعلمه الطفل البدائي ذا مغزى اجتماعي ووظيفي في حياته ومرتبطا ارتباطا مباشرا بواقع حياته .

٥ - الأبوان معلمان :

فالطفل البدائي يتولى تعليمه أبواه ، فيعلمانه إلى جانب قيم وتقاليد القبيلة أي الطرق يسلك وأي الثمار يأكل وأيها يترك . وعندما يصحب الأبن والده للصيد يتعلم صيد الحيوانات وقتلها تعلما فعليا . كما أن أخته في المنزل تتعلم رعاية الأسرة والمنزل بمشاركة أمها في أداء واجباتها المنزلية . وقد يذهب إلى قريب له أو إلى خبير في قبيلته ليتعلم كل ما يمكنه من نشاط مطلوب كالقنص وصيد الأسماك ونصب الفخاخ وغيرها .

وهكذا لانجد في المجتمع البدائي من يتخصص في التدريس . فالآباء عادة أو كبار السن يعلمون صغار أقاربهم . كما يقوم بعض البالغين المتخصصين بتعليم الصغار الأمور والطقوس الدينية . وهكذا يسهم القائمون بالتعليم إسهاما تاما في الحياة الاجتماعية . ويمارس ا لقائمون بالتعليم في المجتمع البدائي ما يعلمونه لصغارهم . فالصيادون يعلمون رمي الرمح والسهام والفلاحون يعلمون الزراعة وهكذا ، في حين أن أغلب ما يمارسه المعلم في المجتمعات الحديثة هو التدريس النظري الذي يعتمد إلى حد كبير على " الكلمة " . وهكذا يكون التعليم لدى المعلم في المجتمع البدائي مرتبطا بالعمل وهو ملتزم تماما أمام تلميذه الذي قد تربطه به القرابة . وهو كذلك مسئول عن نتائج تعليمه . وإذا ما فشل في توصيل مهاراته للتعليم فإنه يشعر غالبا بتنائج ذلك على الفور . فإذا لم يتعلم الصبي مثلا الطريقة السليمة للصيد فإن ذلك سيكون أمرا واضحا للجميع. في حين أن المدرس المعاصر لاتكون نتائج تعليمه واضحة بهذه الدرجة .

٦ ـ التعليم مرتبط بالحياة :

يتعلم الطفل البدائي مختلف الأشياء وهو يدرك علاقة التعليم بحياته الحاضرة والمستقبلة . ومن ثم يكون التعليم عن رغبة حقيقة لديه . إنه يدرك أهمية ما يتعلمه ويدرك أيضا ما يعنيه ذلك من أجل بقائه واستمرار حياته . وهكذا يكون الطفل البدائي مشوقا إلى التعليم والتعلم ويقبل عليه برغبة أكيدة ودافع حقيقي من داخل نفسه .

إن السبب الرئيسي في فتور الطفل في المجمتع الحديث نحو التربية والتعليم يرجع إلى وجود فجوة كبيرة بين ما يتعلمه في المدرسة و ما يجب أن يعرفه ليعمل عملا منتجا كي يمتع نفسه بالحياة . فالطفل المعاصر يتعلم أشياء عن تاريخ وجغرافية الشعوب الأخرى ، ويتعلم أشعار السابقين واللاحقين ويحفظها ، ويدرس منتخبات من الأدب العالمي ، كما يتعلم أشياء عن الفضاء والأقمار الصناعية والإنشطارات النووية وغيرها .

وعلى الطفل المعاصر أن يتعلم هذه الأشياء سواء رغب فيها أم لم يرغب ، وسواء فهم معناها بالنسبة لحياته أم لم يفهمها . وهو في معظم الأحوال عاجز عن ربط ما يتعلمه بواقع حياته التي يحياها . وهكذا تصبح التربية المعاصرة مثبطة في معظم الأحوال للتلاميذ ومنفرة لهم . وليس بغريب إذن أن نسمع عن كثير من حالات النفور والعزوف عن المدرسة حتى بين أناس أثبتوا أنهم عباقرة خارج المدرسة . وتسعى التربية في المجتمعات البدائية إلى ربط الأجيال بعضها ببعض وعدم وجود فجوة اجتماعية بينها سواء كانت هذه التربية مهمة الأب أو أحد كبار الأسرة أو أقاربها . في حين أن التربية المعاصرة تخلق فجوات وهوات اجتماعية كبيرة بين الأجيال من خلال دورها في تحقيق آمال ومطامح الآباء في تربية أبنائهم والارتقاء بهم في السلم الاجتماعي . ففي الوقت الذي نجد فيه أن الأبن في المجتمع البدائي يحيا حياة أبيه في صغره وفي كبره نجد أن الأبن في المجتمع المعاصر يصبح من طبقة اجتماعية أرقى من أبيه العامل أو الفلاح مثلا إذا تعلم الأبن وأصبح طبيبا أو مهندسا . فالتعليم في المجتمع المعاصر أداة للحراك الاجتماعي والرقي الطبقي الاجتماعي .ولم يكن الأمر كذلك في المجتمع البدائي.

٧ ـ عدم وجود مدارس نظامية :

إن أهم مصادر التربية في المجتمعات البدائية تشمل الأسرة والأقارب

وحفلات التدشين Initiation Ceremony التي ينخرط الطفل بموجبها في مجتمع الكبار . ولم توجد مدارس بالمعنى الذي نفهمه الآن لأن المدرسة جاءت مؤخرا في تاريخ التربية وكان ظهور المدرسة وليد ظروف وعوامل متنوعة اقتضت وجودها كما سيشير فيما بعد.

دروس مستفادة :

مع أن المجتمعات البدائية لم تعرف المدارس النظامية إلا إنه كانت لها أساليبها ووسائلها الخاصة في تربية صغارها وتنشئتهم . ولم تكن التربية احتكارا على هيئة أو فئة معينة ، بل كانت عملية تشترك فيها الأسرة إلى جانب الأهل والأقارب والكبار ذوي الخبرة في القبيلة كما سبق أن أشرنا وربما يبرز سؤال : لماذا تدرس التربية في هذه المجتمعات التي أقل ماتوصف به أنها بدائية ؟ وهل هناك قيمة أو شيء مفيد يمكن أن نخرج به من دراستنا للتربية في هذه المجتمعات ؟ الواقع أن الإجابة على هذا السؤال يمكن تناولها من عدة جوانب . فقد ينظر إلى التربية في المجتمعات البدائية على أنها نقطة البداية الطبيعية التي ينطلق منها دارس تاريخ التربية بادئا رحلته الطويلة عبر العصور المختلفة . وقد ينظر إلى المجتمعات البدائية على أنها تمثل فجر التفكير الإنساني وتعكس مدى قدرته على بناء كيانه الاجتماعي . وقد ينظر إلى المجتمعات البدائية أيضا على أن دراسة التربية بها مهما كانت هذه الدراسة بسيطة لاتخلو من فائدة أو درس مستفاد . إن سر قوة التربية في المجتمعات البدائية إنما يكمن فيي شيئين رئيسيين تفتقران إليهما التربية في مجتمعاتنا المعاصرة أو الحديثة :

أولهما : نجاح هذه المجتمعات في تربية صغارها وإدماجهم في مجتمع الكبار. فقد استهدفت الأساليب التربوية للمجتمعات البدائية مساعدة الفرد على أن يصبح جزءا متكاملا مع ثقافته التي ينتمي إليها . وسعت إلى تكوين الأفراد الذين يتشربون تقاليدهم وأعرافهم دون تغيير . وكان الطفل البدائي ـ كما أشرنا ـ يعتمد في تشربه لتراثه الثقافي على ملاحظة البالغين وتقليدهم في أنشطتهم المختلفة سواء في الزراعة أو الحصاد أو الصيد أو الاحتفالات أو الطقوس الدينية وهو في كل هذا يحيا عن قرب مع الكبار ولا يبتعد عنهم . هذا في حين أن الطفل في المجتمعات المعاصرة يعيش فيي شبه عزلة عن مجتمع الكبار ، فهو يترك منذ صغره إلى المدرسة لتقوم بتعليمه . وفي المدرسة يتلقى مع أقرانه من

الصغار . وهناك ينمو معتمدا على ما تمده به ثقافته من خلال المدرسة، ومنها يعتمد على تجربته المباشرة على نقيض الطفل البدائي الذي يختلط بأناس من مختلف الأعمال والخبرات . وهكذا ينشأ الطفل المعاصر غريبا على مجتمع الكبار لأنه في معظم حباته لايجد المجال الكافي للاحتكاك بهم . كما أنه لايتولى أية مسئوليات اجتماعية أو اقتصادية تهيئه لحياة الكبار . لقد أسهم التغير الاجتماعي والثقافي السريع إلى جانب التخصص الاقتصادي الذي يتميز به المجتمع المعاصر إلى إغتراب الأب عن إبنه . ولم يعد في حاجة إلى اتباع أبيه في تخصصه أو أسلوب حياته العملية كما كان من قبل . بل إنه في الحالات التي قد يقرر الإبن اتباع أسلوب أبيه فإن الأبن لايعتمد على أبيه فيي تعلمها . والأب بدوره لايجد الوقت ولا المجال الذي يمكنه من إعطاء الاهتمام الكافي لتعليم إبنه . يضاف إلى ذلك أن ضعف الترابط الأسري في المجتمع المعاصر وطول بقاء الأب والأم خارج المنزل وعدم إسهام الإبن بشئ رئيسي في اقتصاد الأسرة ، كلها من الأسباب الرئيسية لزيادة إغتراب الصغير عن مجتمع الكبار . وأخيرا هناك التغير السريع لمجتمع تتصارع فيه القيم الدينية والدنيوية والمذاهب الفكرية الأيديولوجية مما يزيد أيضا من إغتراب مجتمع الصغار عن مجتمع الكبار في عصرنا الراهن . ومع أن التربية المعاصرة عليها دور هام في سد هذه الفجوة ، ويمكن أن تقوم بدور إيجابي في مساعدة الصغار على الانخراط في مجتمع الكبار بيسر وسهولة فإنها لم تحقق نجاحا كبيرا في هذا السبيل . هذا في حين أن التربية البدائية قد واجهت المشكلة بنجاح كبير .

ثانيهما : تميز التربية البدائية بإثارة تشوق الطفل للتربية وإقباله على التعلم بدافع داخلي واستشارة حقيقية . في حين أن الطفل الحديث يجد أن كثيرا مما يدرسه في المدرسة نظريا وجافا ومعزولا عن دنيا حياته . ويوصف معلم اليوم بأنه شخص يحاول تعليم آخرين أشياء لايرغبون في تعلمها .